النثر عند جبري

*** المقالة الأدبية، والاجتماعية، والسياسية**

***التأليف الأدبي، النقد، أدب الرّحلات**

*** استفاضة القصة أمس، واليوم..**

*** المحافظة على البيان العربي، الولع باللغة، الجزالة..**

انتهيت الآن، من قراءة كتاب: أنا والنثر للأديب الكبير الأستاذ شفيق جبري، قرأته في جلسات ثلاث طويلة عميقة في يومين، وبعض اليوم. استغرقتها في استجلاء ملامحه، وإدراك مضمونه، وتدبر لحوده، وفنه! وعدت أقرأ متفحصاً مفعولاً من فصوله، مطالعاً بإمعان مقاطع من هذه الفصول، لأثبت فكرتي عن موضوعه، ومنحاه...

الكتاب نصه تجربة أدبية.. وهو ثاني كتاب للمؤلف في هذا المنحى، فقد سبق للمؤلف أن وضع قبله كتاب أنا والشعر وقد وضعه، كما هو معروف، بناء على اقتراح صديق له؛ طلب إليه الكتابة في موضوعه، ففعل، وكذلك كتب مؤلفنا الكبير في تجربته الخاصة في الشعر وحاضر فيها، ثم كتب في تجربته الخاصة في النثر،

وحاضر فيها أيضاً.. وقد ذكر في كتابه الجديد، أنا والنثر الذي نحن بصدده، أنه يَعُدُّ العُدة في هذه الأيام، لكتابة كتابه، أنا والناس، فيكون قد وصل، على حد تعبيره.. حياته الأدبية بحياته الخاصة، وذلك كل ما يتمنّاه وما نتمناه معه أيضاً.

كتاب أنا والنثر، من الكتب الثمينة النادرة، التي خصها أصحابها بقصصهم، واعترافاتهم، وخبرتهم وفنهم.. وموضوع هذا الكتاب قصة نوع من أنواع الأدب عند المؤلف وهو النثر، بمختلف فنونه من مقاله، وقصته، ووصف وانتشاء وترجمة وتحليل...

وقد اصطنع المؤلف المنهج التاريخي الزمني، للحديث في تجربته الخاصة في النثر فاعتبرها في تسوية كتابه وفصول الكتاب فتحدث في يفاعته، وأيام التحصيل والكسب، ثم في شبابه.

وطور العمل، والإنتاج.. ثم كهولته ومشاركته في المجالات الثقافية؛ والأدبية، أو الاجتماعية والسياسية، فيذكر ظروف حياته وأطوارها، وتطور هذه الظروف وتدرج هذه الأطوار، ويذكر الدور الذي أداه النثر في كل طور منها، وإزاء كل ظرف من ظروفها في تأثيره فيها، أو تاثره بها، ويعقد الدراسات المستفيضة، الفنية، إن صح التعبير، والأسلوبية، عن نثره في كل طور منها، وخصائصه وتطور هذه الخصائص.

حياة المؤلف حياة رتيبة، هادئة، وهانئة، لا فجوات فيها، ولا

نتوءات، التعلُّم، التحصيل، ثم المطالعة الخاصة، والحفظ، والإنتاج، ثم التدريس، أو التوظف في السلك الإداري، ثم تعيين في المجمع العلمي، وكلية الاداب، ثم رحلات إلى أوربا، وأميركا والبلاد العربية، ثم تقاعد عن العمل. كل ذلك يجري، بحمد الله تعالى من غير كوارث؛ أو مآسي، أو اضطهاد، أو عذاب... وملازمة الإنتاج لهذه الأطوار، ملازمة تامة، مع تكيفه بها؛ وتأثيره فيها.. مثل التأليف الأدبي، والنقدي، في المتنبي والجاحظ، أو في دراسة الأغاني، أو في نقد الكتب، أو أيضاً مثل المقالات الأدبية، والاجتماعية، والسياسية، في إصلاح النفوس، والمجتمع، أو في مقارعة الاستعمار.

الفنون الأدبية التي قدّمها المؤلف في النثر هي المقالة من أدبية، واجتماعية، وسياسية، والوصف والتأليف الأدبي، والنقد، والتحليل.. وقد وهب الله المؤلف دقة في الملاحظة؛ والاستنتاج، والتحليل، وعقلا راجحاً يكلف بالمعاني، والتحديد، والتقسيم.. فأفاد من ذلك في فنون نثره كافة، الأدبية، والاجتماعية، والسياسية.

ولم يعالج المؤلف القصة في أدبه، وعزا ذلك إلى عدم استفاضة القصة في أيامه، إذ كان المقال آنذاك عنوان الأدب.

وقد أورد المؤلف في حديثه عن القصة في نثره، التي ترجم فيها قليلاً... اعتراف علمين كبيرين من رواد الأدب في الشام عزفا عن

القصة وتأليفها، هما أحمد فارس الشدياقومحمد كرد علي عزف الشدياق عن القصة لطولها، والسفسفة فيها.

وكان زار لندن وشهد التمثيل فيها، فانتقد عليه الطول انتقاده طول الرواية على العموم، والسفسفة فيها، عند هؤلاء الأجانب. وعزف الكرد علي عن القصة فلم يشارك في تأليفها، أو في نقدها، رغم ترجمته لبعض منها، لأن القصة في اعتقاده مختلفة.

وقد فَنَّد المؤلف هذين الرأيين فدافع عن الرواية، دفاعاً مجيداً حقاً، يدل على طول باع في فهم أصولها وفنها، وتذوقها.. واتساعها لموضوعات شتى للتاريخ، ودراسة الأهواء، ووصف الأخلاق، وواقع الحياة والمثل العليا.. وأظهر أن الأدب الحديث ينصرف اليوم إلى الرواية، وإلى القصة القصيرة، ويكاد لا يعرف غيرهما، وتمنى ازدهارهما، ورقيهما.

تلك هي الخطوط الأساسية في تجربة أديبنا الكبير شفيق جبري في النثر، ولعلي نسيت أن أذكر أن هذا النشاط في النثر يوازيه نشاط آخر، يتممه، في الشعر، لعلّه يساويه؛ أو يفوقه أيضاً، إن في الإخوانيات، أو الحماسة، أو الوصف، أو البوح، أو التأمل.

والمحافظة على البيان العربي، والبساطة في التعبير والوَلَع باللغة والعناية بالجرس، والجزالة في السبك.. كل ذلك يؤلف أسلوب أديبنا الكبير شفيق جبري في النثر، وهي تقابلها في شعره، السلفية البديعة، والرهافة في الحس، والسلاسة في النظم.

هـذا الكتـاب مرجـع ثمـين لتجربـة مـن تجـارب أدبنـا الحديـث.. في تضاعيفهـا قصـة العصـر، والأدب.. قصـة التجديـد، والإبـداع. إننـا نحيِّـي المؤلـف أجمـل تحيـة علـى كتابـه، شـاكرين لـه أريحيتـه، مقدريـن عملـه، مُكبِرين صدقه فيـه.. والله الموفـق.

دمشق - عدنان ابن ذريل
٥ نيسان ١٩٦٠ دمشق المساء

الأستاذ روحي فيصل والشعر السوري في عيد الجلاء

-٣-

الرأي العام ٢٥ نيسان ١٩٤٦

قصيدة شفيق جبري

وقع شفيق جبري في قصيدته على أخص المعاني التي كانت تضاحك يوم الجلاء سرائر السوريين من وراء خواطرهم وعقولهم.

فلعلى تذكر أن فرنسا كانت هنا ملء البلدة والضيعة والسهل والوادي والجبل، وأن سلطانها أو سلطان جبروتها كان فوق ما تتوهمه الأحلام والظنون.

وجعل السوريون، كما تعلم، يجاهدون من دون أوطانهم وأموالهم، ويضعون دماءهم على أكفهم، لا يبالون بالتضحيات الجسام من أجل الحرية والسيادة والاستقلال.

ولكن فرنسا كانت تمكن لنفسها في ضعاف النفوس وضئال العقول، وتقوم سياستها مع الآخرين على الخداع والمراوغة والوقيعة، أو على المخاشنة والبطش والقوة.

وينتهي الأمر كله بالبلاد وبفرنسا في هذه البلاد إلى الحلقة

المفرغة. فجهاد مستمر مع أجنبي دخيل، وأعزل ضعيف أمام قوي شديد، ولا أمل للحق في أن يظهر على الباطل في مثل هذه الحال.

وتمضي على ذلك ست وعشرون سنة. فلما تلفّتَ السوريون يوم الجلاءن فلم يجدوا على أرض الوطن إفرنسياً ولا إنكليزياً؛ أخذتهم من كل صوب معان نفسية شتى هي التي وقع على أخصها شفيق جبري في قصيدته.

من هذه المعاني؛ لذهول الضاحك:

حلم على جنبات الشام أم عيد لا الهم هم ولا التسهيد تسهيد

أتكذب العين والرايات خافقة أم تكذب الأذن والدنيا أغاريد

ثم الفرحة الواعية:

لو ينشد الدهر في أفراحنا ملأت جوانب الدهر في البشرى الأناشيد

ثم التساؤل المهموس:

من كان يحسب أن الشام يلفظهم وأن طيفهم في الشام مفقود

ثم النقمة الساخرة:

ويل النماريد، لا حس ولا نبأ ألا ترى ما غدت تلك النماريد

وتتسلسل صور الذكريات المريرة

واحدة بعد أخرى:

الطفل في المهد لم تهدأ مضاجعه مروّع من لهيب النار مكمود

تلفه أمُّهُ ما بين أضلُعِها وموقد النار مِطْراب وغِرِّيد

وهكذا تهدأ جوانب النفس رويداً رويداً، ثم تستقر الخواطر

والأحاسيس كلها عند الثقة بالعروبة، والاطمئنان إلى المستقبل وجمع شتات الأمر، وبنيان الملك الموطد والشاعر شفيق جبري يأخذك في نقلة بين هذه المعاني النفسية على هدوء وإيقاع، وفي وضوح وإمتاع، وأنت تذهل وتفرح وتتساءل وتنقم وتتذكر، حيث يقوم هو بهذا كله في شعره المسحوب على خلجات النفس يوم الجلاء.

لا تسأل الأستاذ شفيق جبري بعد هذا: كيف جعل «البيد» ترمي بالعدو إلى وراء الحدود؟ وكيف جعل قصيف رعدهم في السمع«تغريد» فتلك من عثرات القوافي..

ولا تسأله أيضاً: كيف تداعت خواطره، وتقاطرت أفكاره إلى الوراء.. إلى حطين وصلاح الدين؟ فربما لا يدري هو نفسه سبب هذا التداعي والتقاطر، اللّهم إلا أن تكون لا واعيته تنظر إلى الشرق يستعمره الغرب منذ الحروب الصليبية!...

وأغلب الظن أن الشاعر لم يند عنه صلاح الدين إلا ليقر عينه بهذا المصير الهانئ الذي ظفر به على عدوه بلد إسلامي عظيم:

اضرب بعينك هل تلقى له أثراً كأنه شبح في الليل مطرود

إن تكن البشرىلا بحسن المصير هي الغاية فقد كان أخلق بشفيق جبري أن يزفها إلى يوسف العظمة لاعتباره البطل الأول في سلسلة الأمجاد السورية الحديثة.

ويعجبني قول الشاعر يصف حوادث أيار:

ذكرى شجونك ما تنفك ماثلة لم يمح من هولها عيد وتعييد

فهنا هول النيران الفرنسيةتنصب في أول أيار الماضي على الآمنين الوادعين، لا تزال باللغة آثارها، عميقة جراحاتها، متخثرة دماؤها، وأفراح الجلاء مهما اشتدت وصخبت وطالت لا تنسي السوريين، أو يجب أن لا تنسيهم أيام أيار. فيا للتذكرة الخالصة يبسطها هنا الشاعر شفيق جبري.

والقصيدة، كما رأيت، على الجملة من الشعر الجيد جداً، الممتاز حقاً.

أين شفيق جبري فأبوسه من بين عينيه؟

من يره فليقل له أحسنت، أحسنت!

«محمد روحي فيصل»

الأستاذ شفيق جبري والوظيفة

قال ابن هبيرة: ما رأيت كالفرزدق

هجاني أميراً. ومدحني معزولاً!

وبعد فقد كان على أصدقاء الأستاذ أو أولئك الذين يتظاهرون بهذه الصداقة، والذين طالما فخروا بها وطالما أفادوا منها، أن يكتبوا عنه، ويصفوا للناس أدبه لا علينا نحن الذين لم يكن بيننا وبين الأستاذ إلا الصلة الرسمية من حيث كان رئيساً لديوان المعارف، وكنا من معلمي المدارس القروية الابتدائية... وصلة الأدب؛ من حيث هو قائد من قواده الأكابر، ونحن من جنوده الأصاغر....

وإذا كان قبل اليوم ما يمنعنا من الثناء على الأستاذ؛ والتحدث عن أدبه، وإذا كان قبل اليوم ما يحفزنا إلى نقد آثاره والإيغال في هذا النقد؛ حتى نجاوز به عامدين حد النقد: إذا كانت عزة النفس وخشية أن يظن بنا الملق والتزلف ونحن من أكره الناس لهما.. إذا كان هذا ما منعنا قبل اليوم من الثناء؛ وساقنا إلى النقد، فإن الوفاء والحق يوجبان علينا اليوم أن نتكلم عن أدب الأستاذ فنطيل

الكلام، ولا نتحرج من الثناء!

وإذا كان لجبري (الموظف الكبير) خصوم وأصدقاء، وناقمون عليه وراضون عنه؛ فما لجبري (الأديب الكبير) خصم، ولا عليه ناقم، إلا أن تكون خصومة أدبية في الظاهر ومردها إلى الوظيفة وما يتصل بالوظيفة... وقد ذهبت تلك الوظيفة وذهبت معها تلك الخصومات، وأصبح من الواجب على كل من يمت إلى الأدب بصلة أن يهنئ الأستاذ بانقطاعه إلى الأدب، ويهنئ الأدب بانقطاع الأستاذ إليه، ونجاته من هذه الوظيفة التي كانت ـ مذ كانت ـ بلية على الأدباء مقيدة أفكارهم وعواطفهم معترضة سبيلهم إلى الخلود، صارفة نفوسهم السامية إلى غير ما خلقت له، وفطرت عليه.. وذهاب الوظيفة قد يكون رزءاً ومصيبة على الموظفين الذين لا يرتفعون عن سواد الناس إلا على قوائم الكرسيّ، أما الموظفون الذي ترفعهم نفوسهم ومواهبهم وآثارهم فلا يزيدهم فقد الوظيفة إلا رفعة وسمواً. وقد خسر المتنبي الوظيفة التي كان يحلم بها ولكنه ربح الخلود على الدهر والجلوس على عرش الشعر ألف سنة، وقد انتهت أيام حافظ إبراهيم في الوظيفة ولكنه بدأ في الشعر أيام الشباب من جديد؛ ومهما يكن من أمر الوظيفة، فإنها لا تجعل الناس يقولون عن صاحبها؛ هذا مؤلف خطط الشام، وهذا مؤلف الجاحظ والمتنبي؛ ولو كان صاحبها وزيراً أو رئيس ديوان.. وقد نسي التاريخ أو كاد ينسى ملوك اليونان وكبار موظفيها ولكنه لن

ينسى أبداً الشحاذ هوميروس وقد نسي التاريخ - كما يقول تيوفيل ـ كويته ـ اللآلىء التي في تاج الملك الأكبر لويس الرابع عشر، ولكنه لم ينس الرقع التي في حذاء كورنيل!!

فليهنأ سيدي الأستاذ وليهدأ بالاً، وليعكف على الأدب فالأدب سبيل الخالدين؛ وما دام يرى الأدب أُلهية فليله به ما شاء أن يلهو، ولكنا على رأينا؛ لا نراه لهوا أبداً؛ ولا نرى لهو الأستاذ إلا الجد كل الجد؛ وإذا كان شعر جبري وأدب جبري، هو ما يسميه الأستاذ جبري لهواً... فما خلافنا مع الأستاذ إلا خلافاً في اللفظ!

هذا وما نريد أن نصف أدب جبري في هذه الكلمة الوجيزة ولكنا نريد أن نقول على رؤوس الأشهاد، لا عن رغبة ولا رهبة:

بأن الأستاذ جبري الشاعر الكبير، والباحث المدقق، والمتفرد بالمراثي الوصفية التحليلية، والعربي الوفي للعربية، لا يمكن أن يزيده فقد الوظيفة إلا سموا في الأدب ودنوّاً من الخلود.. بل إن الأستاذ جبري مذ أغلق دون اسمه سجل الوظيفة قد فتح لاسمه سجل الخلود...

زاكية: الغوطة

«علي الطنطاوي»

رجالات دمشق وأدباؤها في المرآة

شفيق بك جبري

قامة آخذة بالطول، وحسم متناسب الأعضاء، عليه مسحة من الجمال. ليس بالبادن السمين ولا بالرقيق النحيل. وجه أثرت به شمس دمشق فأكسبته بعض السمرة وكانت كقناع شفاف لذلك الوجه الذي نافسه الجسم ففاقه تناسقاً وجمالاً.

تلقاه مقطباً بارز الشفتين كأنه ناقم على دهره أو حزين على قافية ضاعت فشردت في صحراء الخيال.

إذا كان لك مهمة معه تتردد في طلبها منه إذ لا تتوسم الابتسامة في ثغره ولا اللطف عن جبينه، لكنك متى حادثته تغير رأي عينيك فيه، فاللطف يخرج من فيه كلاماً وليس على وجهه سيماؤه. يحادثك وكأنه ليس في مجلسك، فقد يخاطبك بلسانه وفكرته في عالم غير عالمك.

جمع بين رخاء العيش والأدب وخالف سنة الله في خلق الأدباء.

هو رئيس ديوان وزارة المعارف السورية ويمين وزيرها «كرد علي»: يخدم المعارف بوظيفته كعامل وبقلمه كأديب كبير، ولكن

متى وسوس له شيطان الشعر والأدب فلا الوظيفة ولا عبؤها الثقيل يحجب عنه خيالاً يحاول التحليق عالياً.

مجدد نقاد يريد أن يخلق في النقد الأدبي طريقة جديدة ومذهباً خاصاً ليدرس فيه المؤلف من منتجات دماغه قال:

«الناقد الأدبي يجب عليه أن يقرأ آثار المؤلف حتى يستطيع أن يبدي رأياً فيها فإذا استعان بكلام غيره على هذه الآثار لم يكن نقده نقداً.

مثل المصادر الأدبية في تأثيرها في أذهاننا كمثل مشاهد الطبيعة في تأثيرها في حواسنا فكما أن هذا المشاهد قد تترك في حواس مصور آثاراً لا تتركها في حواس غيره من المصورين فكذلك المصادر الأدبية فإنها قدت تترك في ذهن رجل آثاراً لا تتركها في ذهن غيره».

غير أنني ما رأيته توصل إلى هدف الغاية التي يريدها فهو لم يزل يدور حول موضوع النقد وطريقته وعسى أن يتوفق إلى إصابة الهدف المقصود في المستقبل.

ميال إلى الأدب الغربي وخاصة الإفرنسي فطالما أتاك أثناء حديثه بكلمات: أناطول فرانس، تان، هيكو، برونتير، سانت بوف، غوستاف لوبون «وفارور الإيطالي» وغيرهم من أعلام الأدب الغربي.

مغرم بل متيم بأبي الطيب المتنبي غراماً كان له تأثير في شعره

الـذي نتوسـم بـه أسـلوب المتنـبي، وإن كـان لا يغـور علـى حسـناته كسواه من الشعراء الذين لهم من أدب أبي الطيب مدد وأي مدد، فهم يأخذون المعنى واللفظ مع تعديل بسيط.

وشعره وإن يكن قديم الأسلوب فهو حديث المعاني ومعانيه في ألفاظه ـ غالباً ـ تكون كثوب فضفاض على جسم نحيل، لكن له بعض قصائد حديثه الأسلوب حسنة السبك معانيها تزين ألفاظها تزين معانيها وألفاظها مثل قصيدة نابليون والشيخ وهذه بعض أبياتها إذا صدقت الذاكرة، نابليون يقول:

أنا الرب في الأرض رب الحروب — قطعت الطريق على الفاتحين
إذا ما غضبت على أمة — مشيت إليها بريب المنون
وأغضب إن شئت بالبارقات — فأطوي القلاع بها والحصون
طويت الملوك وتيجانها — وإني بطيّ الملوك قمين
وذلّلتُ مصر وأهرامها — ولكن عجزت عن العاشقين
فما لي في الحب رأي يطاع — ولا أنا فيه من الظالمين

يحب الظهور، وهذه صفة في كل شاعر وأديب، ولكنه يريد أن يتذوق الناس محاسن أدبه دون أن يحاول إذاقتهم تلك المحاسن بنفسه.

إذا حدث عن الحسد أجاد وأسهب فكأنه مصاب ببعض سهام الحساد فهو ينفحهم بعض سموم قلمه كلما حانت الفرصة ويعجبه كثيراً قول صاحبه أبي الطيب:

هو من رواد مقهى العباسية وفي عصر كل يوم تجده متكأً على طاولته منفرداً تسامره نديمته المحبوبة لديه «النرجيلة» مكتفياً بقهقهاتها عن ابتسامة الناس وهو ملتفت إلى جهة معينة من تلك القاعة كأنه يستوحي خلوداً لقصيدة يفكر فيها ولم يبدأ بنظمها بعد، وهو عابس قليلاً ما يحيل نظره المرة بعد المرة فيمن حوله من الناس وكأنهم قد عكروا عليه صفاء ذهنه.

إذا عرفك أديباً احتَلَيْتَ قسماً كبيراً من تقديره واعتباره فهو يحترم الأدباء وينظر إليهم لا كنظره إلى بقية الناس.

عُيِّن السنة الماضية مديراً وأستاذاً لكلية الآداب فشرع يلقي محاضراته ببلاغة أسلوب ومتانة عبارة وسعة اطلاع، فهو يخدم المعارف الآن أستاذاً كما يخدمها أديباً ومأموراً.

بدوي

شخصية الأسبوع

شفيق جبري

- عميد كلية الآداب -

شيخ... ولكنك تنظر إليه فتخاله لم يتجاوز الأربعين بعد!. أنيق.. لأنه يحب دائماً أن يعيش في جو جديد. ولولا مشيته البطيئة المتراخية لحسبته وهو يعبر الطريق شاباً عصرياً في ربيع حياته.

عاصر كلية الآداب في عهدها الأول، وتولى عمادتها. وعندما عادت الكلية إلى حياتها من جديد منذ أربع سنوات لم تلبث الأَنوار أن انصبت عليه، لأن رصيده في الإنتاج الأدبي، والإدارة «الأدبية» كبير!. وهكذا عادت الكلية إلى أحضان صاحبها الأول.

هو كشاعر.. فحل من فحول شعراء الشام. له قصائد تجري على كل شفة ولسان. كان في عيد الجلاء الأول المجلي في الوفاء لهذا العهد الوطني بقصيدته التالية:

حلم على جنبات الشام أم عيد لا الهم هم ولا التسهيد تسهيد

ولا أدري لماذا سكت الآن! أهي أحكام الوظيفة يا ترى؟. وهل تجني دائماً وظيفة أستاذ الأدب على الأديب؟!.

والعميد الكبير. محاضر ناجح. في صوته طلاوة لم يستطع السن أن يغير منها شيئاً سوى أن جعلها، وئيدة متمهلة!.

أصدر منذ أمد طويل كتابين عن «المتنبي»و «الجاحظ» وقيل: أحسن ما كتب عن الجاحظ هو كتابه «الجاحظ معلم العقل والأدب»!. ويقال إنه سيصدر قريباً كتاباً يدرس فيه كتاب «الأغاني» دراسة جديدة فنية، مفصلة، وإنّا لنرجو أن يحدث ذلك قريباً.

هو دمث الخلق، جمّ اللطف محب لطلابه وكليته، ولكنه يعيش في برج منعزل، فلا أدري إذا كانت سياسة الانعزال هذه تفرضها طبيعة الحياة الجامعية المضطربة، أم أن طبيعة الأستاذ تحبب إليه السكون، وحياة الفتور!.

أنا أعتقد أنه لو اختلط بالطلاب وشجع اندفاعهم الحر فتعهده وتبناه ـ وهو أهل لذلك ـ لأصبحت كلية الآداب ـ بحق وحقيق كلية أدب، وفن!.

ومع ذلك، فما أدري من هو المسؤول عن حياة الجمود في الجامعة السورية جمعاء!.

شوقي بغدادي
كلية الآداب